

العفة.....في شعر الخطفي

د. ندى بنت محمد بن مريسي الحارثي
الأستاذ المساعد بقسم الأدب
كلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى.

In the Poetry of Al-Khutfi

Abstract

The gate through which this study gets into its milieu is important in identifying who is Jarir Bin Attia Al-Khutfi? And what is his virtuous doctrine? These need to know well the features and identities of Jarir's ethical character that is by focusing on the aspects of chastity in his poetry, mainly; on the meaning which involves a moral concept through which people praise others and at the same time how they condemn each others. Thus, this study should have been methodologically defined. Moreover, the definition of chastity as moral and cognitive value from theoretical and functional dimensions will clarify the study scope in moving the functional dimension of chastity poetry to express its insights without any external influence and this is so called chastity interrelatedness and poetry issues.

Erotic poetry has been affected by chastity issues. This affection is deeply expressed in Jarir's poetry compared to other poems.

العفة

في شعر الخطفي

ملخص:

كانت البوابة التي دخلت بها الدراسة إلى الموضوع مهمة لمعرفة شخصية جرير بن عطية الخطفي، ولكشف مذهبه الشعري العفيف ليس إلا. وبعد معرفة محدّدات وملامح شخصية جرير العفيف، وتوجيه بوصلة الدراسة نحو مواطن العفة في شعر جرير الذي دارت معانيه، وتحرّكت حول مفهوم خلقيّ تمادح الناس به، وتهاجوا بضده. فكان لابد من التعريف المنهجي للدراسة، وكان ذلك في مبحث (منهج الدراسة)، والتعريف بالعفة قيمة معرفية معنوية، من الوجهتين النظرية، والوظيفية؛ لمعرفة محدّدات الدراسة في تحريك البعد الوظيفي لها في استنطاق شعر العفة، ليعبّر الشعر العفيف عن ذاته دون إسقاطات عليه من خارجه، فيما سمّيناه (تعالق العفة، وقضايا الشعر).

وقد استأثّر شعر الغزل بقضايا العفة على غيره من قضايا الشعر الأخرى؛ نظراً لتمكّن العفة من غزل جرير. بشهادة غزل جرير، وشهادات الناظرين في شعره الغزلي، مقارنة بشعر غيره في ذلك.

العفة

في شعر الخطفي

بِوَابَةِ الدخول:

يجدر بنا ونحن ندرس مفهوماً أدبياً معرفياً أخلاقياً في شعر جرير -وهو مفهوم العفة- أن نكشف مواقع العفة، وصورها المباشرة، وغير المباشرة في شعر جرير، ونرصد كذلك علاقة العفة معطى شعرياً بما تتقاطع معه العفة، من قيم أخلاقية كانت من أكثر القوى المعرفية حضوراً في بنية الشعر بعامة، والشعر العربي بخاصة. وفي غير الشعر عند الأديب المسلم، بشكل خاص؛ إذ الممدوح القائمة على السلوك السوي، هي ما يبحث عنه الشخص السوي، والمقابح هي ما ينفر منه حتى المنغمسين في بعض صور المقابح.

والعفة من أدق المفاهيم الأدبية وأرقها عندما تغرس عفة السلوك وقوله، وفعله. في النفوس المستجيبة لذلك؛ لأن أبرز ما فيها الخلق العظيم، الذي يعد صفة من صفات الأنبياء، والصالحين. كما قال سبحانه وتعالى في خلق المصطفى صلى الله عليه وسلم: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)^١.

ولأهمية دور الأخلاق في بناء المجتمعات الراقية المتحضرة؛ انصب الاهتمام على تقديم الفضائل الأخلاقية في نشر الوعي بأهمية الفضائل. سواء ما جاء منها وحيماً سماوياً، أو عادة محمودة تتفق مع فضائل الوحي، ولا تنتكّر لها، أو تعارضها.

ومن أقدم النصوص التأليفية في هذا الشأن كتاب (علم الأخلاق) لأرسطو طاليس^٢.

ونظراً لما يحمله الشعر من فضائل الخير، وحسن التسامح في الأغلب الأعم منه. امتدح الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل الشعراء المؤمنين، ممن يقولون منه في الحق والخير. كما جاء في الآيات الأخيرة من سورة الشعراء: (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)^٣.

وإذا كان شعر المدح، وشعر الغزل العفيف قد استأثر بقيم الفضائل وعلى رأسها قيمة العفة. فإن الفنون جميعها تجنح إلى إظهار المحاسن أكثر من جنوحها إلى إظهار المساوي. لذلك تجد القيم الأخلاقية ظاهرة في أبواب الشعر الأخرى غير شعر المديح، وشعر الغزل العفيف بخاصة وأتينا نبحث عن العفة في شعر جرير. أي في الشعر دون غيره من الكلام عند شاعر واحد. وما ذهب إليه الأصمعي من أن (الشعر نكدٌ بابِه الشر إذا أدخلته في باب الخير لان وضعف)، إنما هو من وجهة النظر اللغوية وليست الفنية^٤.

ومن الأدباء والنقاد الذين اهتموا بتأصيل المنظور الأخلاقي في الشعر ابن قتيبة^٥. وقد ذهب قدامة بن جعفر إلى أن أصول الفضائل الأخلاقية التي يمدح بها الناس أربع: (العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة)^٦.

ويتفرّع عن كل فضيلة من هذه الفضائل الأربع كثير من متعلقات الفضائل الأربع الأساس. حتى لتكاد تخرج على الحصر في عددها وتنوّعاتها، وتأثيراتها على الأخلاق العامة.

فعلاقة العقل بالشعر أن العقل الواعي أداة الإدراك الجمالي للشعر فما قبله الفهم الثاقب فهو الشعر الحسن، وما مجّه فهو الشعر المعيب.^٧

والشجاعة لا تكون في الفروسية الحربية وإظهار القوة، والغلبة فحسب. إنها شجاعة الإرادة في الأفعال الحرّة، والتطلع إلى اكتسابها.

والعدل ما قر في النفس بأنه عمل صالح مستقيم، وهو القصد في الأمور.^٨ والعفة من كَفّ، وعَفّ وتعَفّف... وعَفّ عما لا يحل، وعَفّ عن المحارم والأطماع الدنيئة: أي كَفّ عن ذلك.^٩

والبحث عن مكامن هذه المشتقات، وغيرها، مما هو من بابها في علاقة الشعر بذلك، لا يكون بأساليب تعبيرية لغوية وعظمية، ومنطقية، وإنما يكون بأساليب تعبيرية فنية تنثير الإحساس بالجمال. (فالمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء؛ وفي صحّة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة وضرب من النسيج وجنس من التصوير).^{١٠} ولعلّ في شعر جرير وهو من طبقات فحول الشعراء الإسلاميين ما يساعد على فنية شعر العفة عنده، وأن يكون التعبير عن صور العفة تعبيراً حسناً. ونص الجاحظ السابق يعطيك ملامحاً واضحاً عن علاقة الشعر بالفنون الجميلة، وبالتالي عن قوّة تأثير الشعر في القيم الإنسانية.

وفي مقدمتها قيمة العفة. وكيف تختلط مسالكها التعبيرية لتصب في رصيد صور العزم، والعدل. والإصلاح والاستقامة على الأفعال الحسنة، والترفع عن قبيح الأفعال ومرذولها. وهو ما ينطبق على شعر جرير مما عبّر به عن بعض صور العفة في القول، والفعل، والسلوك.

والخطفي هو الشاعر العربي المسلم الأموي جرير بن عطية بن حذيفة التميمي. والخطفي لقب جدّه لأبيه.

ولد باليمامة سنة ثلاث وثلاثين للهجرة تقريباً في أسرة وضيعة من جهة حالتها الاجتماعية.^{١١}

ومن أقدم المصادر، وأوثقها التي كتبت سيرة جرير، ما كتبه ابن سلام في طبقات فحول الشعراء. إذ جعل جريراً في الطبقة الأولى من طبقات فحول الإسلام. ووضعه الأول في طبقته مع الفرزدق، والأخطل، والراعي النميري.^{١٢}

وفي السيرة التي دوّنها ابن سلام عن شعر جرير فضّل جريراً على الفرزدق؛ لأن جريراً كان يحسن ضروراً من الشعر لا يحسنها الفرزدق.^{١٣}

وفي التفريق بين مستويات الثلاثة الأول من الطبقة الإسلامية الأولى. (كان الأخطل إذا لم يجئ سابقاً فهو سكتيت، والفرزدق لا يجئ سابقاً، ولا سكتيتاً، فهو بمنزلة المصلّي، وجرير يجئ سابقاً وسكتيتاً، ومصلّياً).^{١٤}

ويبدو لي أن ابن سلام لم يجعل جريراً أولاً في طبقته؛ إلا لأن هذا أفضل الأربعة في الطبقة. ففضّل جريراً على الثلاثة بإشارات التفضيل التي سبقت الإشارة إليها. وهذا التفضيل يعطي شعر جرير أفضلية في قوة المعاني الأخلاقية، وغير الأخلاقية كذلك.

والسابق هو الأول دائماً، والمصلّي الوسط، والسكّيت المتأخر. ولأن هذه الصفات الثلاث قد اجتمعت في شعر جرير فإن (أهل البادية والشعراء بشعر جرير أعجب)^{١٥} ومن تعفّف جرير أنه لا يبرم، ولا يتأفّف من الشعراء في منازلته لهم. (فقد كان الفرزدق يتصوّر، ويجزع، إذا أنشد لجرير، وكان جرير أصبرهما).

هذه المقدّمة التي كتبها ابن سلام تعد ترجمة شعرية لشخصية جرير بين شعراء الطبقة الإسلامية الأولى لفحول شعراء الإسلام. وأن كشف صور العفة الأخلاقية في شعر جرير، هو الذي يهتما في باب الترجمة لحياة الشاعر، وشعره. والذي قرّب المسافة بين ذلك الشعر العفيف، وذائقة المخاطب به، ما ذكره محقق ديوان جرير في التمهيد الذي قدّم به لحركة سيرورة شعر جرير، توثيقاً علمياً من حيث أصول الديوان، إلى تصحيح نسبته، وعن رواية حياة جرير، ورواية شعره.^{١٦}

وكان لا يشار إلى شعر جرير، ومكانته الشعرية، دون ذكر إسهامه في شعر النقائض. الذي كان يدور بين بعض الشعراء وبخاصة شعراء الهجاء، والمديح، والفخر، وهي أقرب إلى الهجاء منها إلى غيره من موضوعات الشعر الأخرى.^{١٧}

ولم تكن مادة الديوان الذي حققه محمد نعمان طه مرتبة كما هو حال شرح ديوان جرير، ونشر كرم البستاني الذي رتبّه على حروف الألف. باء مثلاً.^{١٨}

ولم تكن الدراسات الأدبية التي درست شعر جرير شحيحة في مصادرها، وتنوّعها، وتعدّد اتجاهاتها؛ نظراً لمكانة جرير الشعرية^{١٩} وغير ذلك من مصادر الأدب العربي، ومراجعته الحديثة.

ومن المسلمّ به أن شعر الهجاء أقرب إلى المقابح منه إلى الممدوح والعتاب وأن جريراً والفرزدق والأخطل من أكثر شعراء العرب في عصر بني أمية، وأنهم كانوا يتهاجون في مجالس الخلفاء، وفي المجالس العامة والخاصة، وأن البحث عن الأخلاق العفيفة في أشعار هؤلاء ومنهم جرير أمر قد يصرف الباحث عن البحث في صور العفة في شعر واحد من هؤلاء ومنهم جرير. ولكن التوقّع الضئيل في وجود العفة في شعر الهجاء قد يتحقّق في صور الهجاء وشعره، ولو عن طريق معرفة الضد، وضده فللمقابح ضدها من الفضائل، وال ضد يظهر حسنه الضد. فإذا هجا أحدهم خصمه بالبخل تبذت صفة الجود، وبألجبن. ظهرت صفة الشجاعة، وهكذا.

وهذا ما تلمسه في شعر النقائض خاصة القائم على أسلوب الجدل المنطقي، في إثبات الشيء، ونفيه: عند الشاعر المشهود له بالاستقامة في حياته، وسلوكه من أمثال الشاعر جرير. قال أبو عبيدة (يحتج من قدّم جريراً بأنه كان أكثرهم فنون شعر، وأسهلهم ألفاظاً وأقلهم تكلفاً، وأرقهم نسيباً، وكان ديناً عفيفاً)^{٢٠}. وأن التديّن والتعفّف من المؤشرات في قيم الشعر الأخلاقية. ومن ذلك العفة.

وقد ترجم ابن قتيبة لجرير من الوجهتين التاريخية، والشعرية، في تسع صفحات.^{٢١} ذكر فيها بعضاً من صور العفة في سيرته، وفي شعره. وهناك شبه إجماع لمن نظر في شعره بأنه كان (من فحول شعراء الاسلام ويشبه من شعراء الجاهلية بالأعشى)^{٢٢}.

ويبدو أن خروجه على العفة أحياناً، والقيم في بعض شعره، كان يُدفع إليه دون إرادة ذاتية مباشرة؛ فقد قال أبو عمرو بن العلاء كنت قاعداً عند جرير وهو يملي:

ودّع أمانة حان منك رحيل إن الوداع لمن تُحب قليل

فمرت جنازة فترك الإنشاد وقال: شيبتني هذه الخبائز. قلت فلأي شيء تشتم الناس قال: بيدؤونني، ثم لا أعفو)^{٢٣}.

والعفو سمة من سمات العفة، فجرير يصوّب الاتهام في فقدان العفو بأنه سبب في ضعف الخلق، وحضور التعفف عما يشين وكان جرير يقول: (أنا لا أبتدي، ولكن أعتدي)^{٢٤}، وكأنه يلتزم مضمون قول الله تعالى: (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)^{٢٥}، ولكن العفو مطلب يقيني (فمن عفا وأصلح فأجره على الله)، وهذا الخلق الذي لا يبدأ بمهاجمة الناس من شعره، وإنما يقف موقف المدافع، جعل الناس يتعاطفون معه، ولا يتعاطفون مع البادئ بالاعتداء، فزاد جمهور جرير كما ونوعاً، فافترب من نفوس الناس أكثر من غيره من شعراء عصره. (فشعبية شعر جرير في قسط كبير منه راجعة إلى أن جريراً كان يذهب فيه مذهباً عاطفياً. أي أنه كان يفارق فيه بعض المفارقة مذهب المدرسة العراقية)^{٢٦}.

وهذا مؤشر على أثر البيئة في تشكيل الطبع الفني بين الرقة، والقوة. وأن الطبع الذي يميل إلى المدح أشد متانة من الطبع الذي يميل إلى الغزل مثلاً، الذي اشتهر فيه جرير برقة العواطف.

كان جرير (أرق الشعراء نسيباً، وأخلص فيه طبعاً، وأقدر عليه)^{٢٧} وليس بالضرورة أن يكون من قال في الغزل من الشعراء أن يكون ذلك أصلاً في سلوكه. كما هو حال جرير في بعض مواقفه، وفي بعض شعره في الغزل وفي غير الغزل وهو الذي (كان يختم مجلسه بالتسبيح، فيطيل: فقال له رجل ما يغني عنك التسبيح مع قذفك المحصنات؟ فابتسم وقال: يا ابن أخي خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم، إنهم والله يبدؤونني ثم لا أحلم)^{٢٨}.

إن هذا التبرؤ من جرير في أنه مدفوع إلى شيء مما يناقض العفة. وأن هذه أصل في سيرته، وسيرورته. حتى ولو كان غزله غزلاً عفيفاً.

منهج الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، لمناسبته للمادة الموضوعية لعينة الدراسة. فحاول استنطاق شعر جرير العفيف؛ لنكتشف ما فيه من قيم العفة من حيث معانيه، إذ تكمن محدّدات العفة في المعاني. والمعاني تكون عفيفة، أو غير عفيفة لما تحمله من أفكار ومعارف أخلاقية، أو من أصداد ذلك. وشعر العفة الذي نبحت عنه، لا يخرج عن شعر ديوان جرير الذي حقّقه، الدكتور نعمان محمد أمين، ونشرته دار المعارف سنة ١٩٨٦م. وهذه الطبعة

تعد أدق، وأوثق، وأقرب الطبقات الأخرى التي نشرت ديوان جرير، ويقع المنشور من الديوان في أربعمئة وسبع وسبعين صفحة. بدئت بهجاء الأخطل في القصيدة التي مطلعها
حيّ الغداة برامة الأطـلالا رسماً تحمّل أهله فأحالا^{٢٩}

وختمت هذه الطبعة من الديوان بقصيدة هجا بها الفرزدق ومطلعها:

ما بال نومك بالفراش غرارا لو أن قلبك يستطيع لطارا^{٣٠}

والنشرة الثانية للديوان، هي نشرة كرم البستاني وقد بدأت بحرف الهزمة، مرتبة القصائد ترتيباً هجائياً.^{٣١}

ولم يخرج شارح ديوان جرير في ترتيب قصائد الديوان، التي شرحها عما فعله كرم البستاني، من ترتيب هجائي.

ولم يكن شعر الهجاء مثلاً مجموعاً في باب شعري واحد، أو المديح، أو الغزل، أو الفخر، أو غير ذلك مما يسهّل النظر في أبواب الشعر باباً باباً، وموضوعاً موضوعاً. فقد تجد شعر الغزل، وهو من أبواب الشعر التي ظهر فيها عنصر العفة أكثر من ظهوره في غير الغزل مثلاً، وتجد عناصر غزلية في مطالع بعض القصائد المدحية والهجائية، وهكذا.

ومهمتنا في تتبع شعر العفة في ديوان جرير المحقق، أن نقرأ الديوان كله، مرتباً وفق ترتيب رواية الديوان، والتزام المحقق بتلك الروايات، ترتيباً لها. وبعد الفراغ من قراءة الديوان وتحديد المادة الشعرية المختارة. قد نقوم بترتيب عناصر شعر العفة، ونكون أمام ترتيب جديد للشعر المختار المعبر عن العفة، حيث أنتظم الديوان المحقق في مئة وسبع وأربعين قصيدة ومقطعة، ونظراً إلى أن الروايات التي اعتمدها محقق الديوان متعددة فقد واجه جمعه عن روايات عديدة بعض الإضافات من خارج النص الشعري لجرير، كالإشارات إلى بعض القضايا ذات العلاقة بمناسبة القصيدة، مما زاد من معاناة البحث في تتبع شعر جرير ورصده وإبرازه من بين ذلك الكم من الروايات. لكن الشيء المفيد لتقريب النص العفيف هو ما صاحب جمع الديوان من شروح للألفاظ البعيدة، والغريبة. مما كان له مردود بياني، في إرضائه بعض حمولات النص الشعري العفيف.

ومن المفيد أن نضرب مثلاً واحداً على بعض متعلقات رواية شعر جرير بعامية. كما ورد ذلك في رواية القصيدة الأولى من الديوان، التي هجا بها جرير الأخطل، وقد سبقت الإشارة إلى مطلعها. فإضافة إلى التوسع في شرح الألفاظ البعيدة. وبعد أن ذكر جرير بعد البيت الرابع والعشرين من قصيدته، ذكر يوم الكحيل، الذي هزم فيه من كان الأخطل يناصرهم. وذكر راوي القصيدة قصة ذلك اليوم، مشيراً إلى عمر بن الحباب في ذلك وما قيل في ذلك من شعر. وأورد الراوي تلك القصة في أربع صفحات تقريباً.^{٣٢} وربما كان مثل هذه الاعتراضات التاريخية تخل بالنسق الشعري، وتضخم مادة الديوان.

وأن المعاني المدحية، هي المعاني الفاضلة المحموده، وكشفها في شعر جرير ينصب في المقام الأول حول البحث عنها في مدائح جرير.

فهي المادة التي تستدعي العفة، إذا ما رأت استدعاءها. ثم الكشف عن الشعر العفيف في شعر الغزل الخالص، أو في مقدمات بعض القصائد ذات المطالع الغزلية، وفي مفردات الأبيات المعبرة عن العفة، ويبدو لي أن البيت العفيف المفرد، أو الأبيات القليلة سيكون ذلك ظاهراً على حساب النص الشعري العفيف.

وقد اشتمل ديوان جرير الذي نشره كرم البستاني على مئتين وثلثين وتسعين. قصيدة ومقطعة، بزيادة عن المنشور في تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه وعددها خمس وأربعون ومئة قصيدة ومقطعة. وهي كمية كبيرة لا بد من أخذها في الحسبان عند البحث عن شعر العفة. وكان كرم البستاني قد أشار إلى أنه حذف من أصول ديوان جرير الأبيات والمقطوعات البديئة الملاً بالفحش.^{٣٣}

(ضناً بالأخلاق العامة وتيسيراً لدخول هذا الديوان، إلى البيوت والمدارس، ثم ليقيننا أن ما حذفناه لا قيمة أدبية، أو تاريخية له)^{٣٤}

وكان عفة جرير الشعرية، كانت حاضرة في اختيارات البستاني أشعار جرير الأخلاقية؛ وما ذلك إلا لأن جريراً (كان عفيفاً في غزله متعقفاً في حياته لا يعهر، ولا يشرب الخمر، ولا يستشهد مجالس القيان يتظاهر بالتدين والتعصب للإسلام)^{٣٥} وهذه الشهادة لعفة جرير في حياته، وشعره تؤكد على، أن العفة التزام أخلاقي، قبل أن تكون نزعة أخلاقية محدودة.

العفة:

تعد العفة بنية أصيلة من بنيات ما يتمادح به الناس، من الأخلاق الفاضلة، في الشعر؛ وفي غير الشعر. ومن أوائل النقاد الذين أصلوا العفة، في فضائل المديح قدامة بن جعفر، الذي أعاد تلك الفضائل إلى أربعة أصول. كما سبقت الإشارة في بحث منهج الدراسة، ويعد الدكتور بدوي طبانة من أبرز الدارسين المحدثين، في توسيع الحديث عن الفضائل النفسية في الشعر. وأنها إن لم تكن بصريح اللفظ تكن بالدلالات المنصوبة على المعاني.^{٣٦}

ومن متعلقاتها عدم الإمعان في الملذات، والسخاء، والوفاء، وأداء الحقوق، وعدم الإفراط في الإنفاق، وذم البخل.^{٣٧}

وقد تفرّع عن كل فضيلة أصيلة مجموعة من المشتقات أقلها مشتقات العفة. وهي القناعة، وقلة الشره وطهارة الإزار وغير ذلك مما يجري مجراه. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.^{٣٨}

وننتج من تركيب العقل مع العفة، الرغبة عن المسألة، والاقتصار على أدنى معيشة. وما أشبه ذلك.^{٣٩}

ومن تركيب الشجاعة مع العفة، الإسعاف بالقوت، والإيثار على النفس، وماشا كل ذلك.^{٤٠}

ولن تكون العفة بمعزل عن التقاطع في المعاني مع الفضائل المدحية الأخرى، من عقل، وشجاعة، وعدل. ومتعلقات هذه الفضائل، التي تنطلق منها، وتعود إليها بحمولات مدحية يتوق إليها كل أحد. وأن البحث في الفضائل من جهة الشعر، يعد بحثاً في المعاني الشريفة، التي تحتاج هي الأخرى إلى فنيّات بيانية تؤثر في نفوس المخاطبين، حتى تستجيب لها النفوس.

ولمّا كان الشاعر مأخوذاً بكل معنى يريد التعبير عنه، فإن معاني الخير والشر معرّضة للشاعر. فإذا كانت معاني العفة معانٍ خيريّة، فإن معاني الفحش مثلاً معانٍ شريّة، والشعر (إذا أدخلته في باب الخير لان) كما قال الأصمعي.^{٤١} وليست الديانة عاراً على الشعر.^{٤٢}

فالنفس الشاعرة قد تستدعي عنصراً في النص الشعري خارجاً على بعض قيم العادة المتعارف عليها في الفضائل النفسية، مما تميل إليه نفس القائل، أو ما يستدعيه النص الشعري أحياناً من أفكار خيرية، أو غير خيرية.

وقد علّق الدكتور طبانة على مشتقات الفضائل، ومرّباتها التي كادت تحيط بكل ألفاظ الأخلاق السوية، وأن حصرها في مشتقات ومرّبات محدّدة، قد لا يحيط بصفاتهما، وأن الألفاظ إذا كانت متناهية، فالمعاني غير متناهية.

لذلك يبقى البحث في عنصر العفة بحثاً في المعاني السوية. وقد مكث جرير يشاغل بشعره أشعار الفرزدق، والأخطل، في الهجاء، والنقائض وهما موضوعان شعريان خرجا على ضوابط الأخلاق، والآداب مما يبعث على التصوّر بأن شعرهم أبعد ما يكون عن التعفّف، وأقرب ما يكون إلى التّفحّش، وهذا يعدّ العفة في شعرهم خارجة على الأخلاق، وقد ينزع إلى العفة في ثناياه، أو خارجه أحياناً نزعة إلى الخيريّة، وليس أصلاً أو ظاهرة ذات أبعاد محدّدة. فقد كان الدبيب إلى نقد الأنساب، وعادات المجتمع السوية، والطعن في المحارم يدور بين أقطاب الهجاء، والنقائض الثلاثة. جرير، والفرزدق، والأخطل، مع أن الأول والثاني من هذا الثلاثي ينتسبان إلى أرومة واحدة. إلى تميم بن مر بن نزار، وقد قالوا شعراً كثيراً في المدح، والفخر، والغزل، والرثاء. وشاركهم الأخطل في ذلك، وأبدع الثلاثة أيّما إبداع، مع مراعاة النظر إلى تفاوت المستويات الأدائية، بين الثلاثة في ذلك. وقد برز التعفّف واضحاً في شعر جرير الغزلي، والمدحي.

فغزل جرير عفيف قريب من شعر العذريين لا يقع فيه على الفاظ المجون، التي انتشرت في دواوين شعراء الغزل، في تلك الحقبة من الزمن.^{٤٣}

ذكر شارح ديوان جرير أن هذا كان ينطلق من تجربة شخصية، وإحساس صادق. وأن المرأة عنده متمنّعة تجد لذتها في تمنعها، وعدم إسماعها بالعطاء.^{٤٤} قد يتفوّق شعره على شعر العذريين في العفة.^{٤٥}

وكما تكون العفة فطرة، أو مكتسبة، تكون الفضائل كذلك، وتكون رسالة الأسوياء في الالتزام الأخلاقي، وتكون حماية الملّك، والذات، والمجتمع رسالة الأمانة على مسيرة الحياة، من حكّام ومحكومين. قال جرير في عبد الملك بن مروان:

الله طوّك الخالفة والهدى والله ليس لما قضى تبديل
إن الخالفة والنبوة والهدى رغم التّغلب في الحياة طويل^{٤٦}

ومن مرّبات، ومشتقات العفة الوفاء بالعهود، والمواثيق. فقد كان زياد بن أبيه والياً بالبصرة. فمدح جرير الأزد:

أضل الله خلف بني عقال ضلال يهود لا ترجو معادا
غدرتهم بالزبير وما وفيتم وفاء الأزدي إذ منعوا زيادا
فأصبح جارهم حياً عزيزاً وجار مجاشع أضحى رمادا^{٤٧}

وقد ظهر من خلال البحث عن مراكز العفة وأطرافها في شعر جرير، بروز تلك النزعة الموضوعية كثيراً في مدائح الخلفاء، والمشهورين من الناس. نظراً لمكانة المقام، والمقال. وما تتمتع به الشخصيات الممدوحة من الوقار، والمكانة الاجتماعية، والحرص على إظهار الفضائل المدحية، في أحسن صورها، وأليق معانيها. وأن العفة في المديح التزام أخلاقي، وليس إلزاماً.
قال المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم^{٤٨}

وقول المتنبي هذا يحتاج إلى توجيه، في أن الفضيلة من عفة، وعقل، وشجاعة، وعدل لا تتغير، وإنما تتغير الحالات المعبرة عن الفضيلة، أو عن غيرها. وفي ثلاث قصائد متتالية من نشرة البستاني لديوان جرير مجموعة إجابات من جرير إلى الفرزدق، ومجموعة من قيم التعفف، التي أحالها جرير، إلى مقابح هجائية، فالتقى ضد الفجور، والظلم ضد العدل. والعقل ضد الهذر، والشجاعة ضد الجبن والعفة ضد القبح وهكذا. وقد تعالق المدح والهجاء في تلك القصائد الثلاث متجهة نحو أصداد الفضائل. فالمدح لا يصلح له إلا الفضائل، والهجاء لا يصلح له إلا المقابح لذلك لا تجهد في طلب العفة في شعر المديح، الذي كله عفة، وفضائل، ولا تطلبها في شعر الهجاء؛ لأنه أبعد ما يكون عن العفة.^{٤٩}

ونظراً إلى أن العفة تعد مفردة من مفردات الفضائل النفسية، التي يتمادح بها الناس شعراء، وغير شعراء، ويتهاجون بأصدادها، وأن مفردة العفة تبدو واضحة المعالم في عامة شعر جرير، وفي خاصته، وأنها الفضيلة التي مدح الناس بها شعر جرير خاصة شعر الغزل، فإن البحث في مركز العفة، وأطرافها كان ينظر إلى هذه العلاقة بين غزل جرير، وعفته. فلذلك العلاقة أثر واضح في توجيه حركة العفة بما هو من استحقاقات العفة الشعرية عند جرير. لذلك كانت العفة من ركوزات غزل جرير الذي استأثر بمركزية موضوعية، وفنية قل أن تجتمع في شعر شاعر بعينه: فلا تكاد تخلو قصائده من جزئية أو أكثر من الغزل، مع الأخذ في الاعتبار كذلك كثرة شعر الغزل في ديوان جرير، خاصة كثرة المطالع الغزلية، ولأن شعر المديح يمتح من معين الفضائل، إذ كله فضائل كان شعر المديح عند جرير شعراً فضائلياً، وحديث هذه الدراسة عن تعالق شعر المديح، والعفة عند جرير هو من باب التوكيد على ذلك، وليس من باب كشف الفضائل من شعر جرير المدحي، فاكتفينا من ذلك بإيراد الإشارات بما يعطي صورة واضحة عن تعالق مدح جرير بالعفة، وقد امتد كشف التعالق بين قضايا شعر جرير العامة والعفة واخترنا ما عبّر عنه ذلك التعالق، جاء ذلك في أبيات مفردة، وفي كشف علاقات بعض الفضائل ببعض، وبعض القضايا بالفضائل؛ مما زاد في توسيع البحث عن مواطن العفة في شعر جرير فجاء معمار البحث على النحو الآتي: بوابة الدخول، وفيها تهيئة الموضوع، وتهيئة القارئ، ونهج الدراسة، بتقريب العرض من سلامة البحث عن النتائج المتوقعة؛ وتعريف العفة بما يتفق مع

مكانة شعر جرير، وعرض الاختيارات الشعرية المعيرة عن روح هذه الدراسة: كالعفة في الغزل، وفي المديح، وفي المتعلق الموضوعي بالعفة في غير قضية. دون تضخيم المادة بكثرة النقول فيكفيك من الفلادة ما أحاط بالعنق، وتناسب النتائج مع المقدمات.

تعالق العفة، وشعر جرير:

الشعر رسالة لها فعلها الروبوي المؤثر في تحسين السلوك سواء أكانت الرسالة من باب المفيد، أو من باب الممتع، والشعر ينبغي أن يكون مفيداً وممتعاً في آن واحد. والشاعر المسلم يهيمه الرسالة المفيدة، والممتعة. وكذلك المستقبل لشعره. والعفة قضية موضوعية معرفية، وهي بهذه الوظيفة تحتاج، إلى صنعة تقربها من ذائقة الرسالة، موضوعاً، وبناءً بما يتفق مع المنظور العام لذوق اللسان الشعري، ومستويات الأداء فيه.

فلماذا اشتهر شعر جرير بالغزل العفيف؟
سؤال يحتاج إلى شيء من الإجابة المعللة.

فقد كثرت مطالع شعر جرير الغزلية، حتى ليخيل إليك أن مطلع كل قصيدة، في أي غرض من أغراض الشعر يبدأ بذكر الغزل عنده. وهذه الكثرة الواسعة لشعر الغزل في شعر جرير تكاد تفوق كل ذكر في مطالع الشعر العربي عامة: يضاف إلى ذلك أن التكثر من شعر الغزل في شعر جرير قد طبع حساً هذا الشاعر، ومزاجه بتعلقه بالغزل في الدخول إلى أغراضه الشعرية، وأن الغزل، وذكره أضحى قيمة نفسية عند جرير، وقيمة معرفية. دار حولها الكثير من تجارب جرير غير الغزلية كذلك، كالقيم الاجتماعية، والتاريخية، وكان من تقاليد الغزل عند العرب في أشعارهم أن تكون المحبوبة مطلوبة و متمنعة، والمعاناة تكون في بحث العاشق عن المعشوقة، حتى يصل إلى درجة من درجات الأمراض النفسية، لكن طلب جرير لمحبوبته والبحث عنها كان يأتي من صور هادئة، وأن الممانعة من طرف واحد، وهو المحبوبة غالباً لا يدفع الشاعر جرير إلى الإمعان في المغامرات العشقية، مما يجعله أقرب إلى العفة منه إلى الفحش، حتى لو انقطع منه ما كان موصولاً:

إِنَّ الْعَوَانِي قَدْ قَطَعْنَ مَمَّوَدَّتِي بَعْدَ الْهَوَى وَمَنْعَنَ صَفْوَ الْمَشْرَبِ
وَإِذَا وَعَدْتِكَ نَائِلًا أَخْفَانَهُ وَجَعَلَنَ ذَلِكَ مِثْلَ بَرَقِ الْخُلَابِ
يُبْدِينَ مِنْ خَلَلِ الْحِجَالِ سَوَافًا بِيضًا تُزَيِّنُ بِالْجَمَالِ الْمُذْهَبِ^{٥٠}

والتمكن من شغاف القلوب وارتهان العاشق لرغبات المعشوقة النفسية، وعدم الإمساك بعري الفؤاد، والتحكم في المشاعر في غزل جرير، تجده قد مازج في أسلوبه المتطلع إلى إرضاء المحبوبة، دون التحكم في الذات. تجد ذلك قريباً من أساليب العشاق العذريين كما في مطلع قصيدة مدح بها جرير الحجاج بن يوسف. استغرقت المقدمة ثمانية أبيات. بث فيها إعطاء المحبوبة ما كان يؤكد لها خلوص محبته:

بِتُّ أَرَائِي صَاحِبِي تَجَّ دُأً وَقَدْ عَلَّقْتَنِي مِنْ هَوَاكِ عَلَوُ
فَكَيْفَ بَهَا لَا الدَّارُ جَامِعَةُ الْهَوَى وَلَا أَنْتَ عَصْرًا عَنْ صِيَاكِ مُفِيئُ
أَتَجَمَعُ قَلْبًا بِالْعِرَاقِ فَرِيْقُهُ وَمَهُ بِأَلَالِ الْأَرَاكِ فَرِيْقُ
كَأَنَّ لَمْ تَرُقْتِي الرَّاحَاتُ عَشِيْبَةٌ وَلَمْ تُمَسِّ فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمِيْقُ

أُعَلِّجُ بَرَحاً مِنْ هَوَاكَ وَشَفَنِي
أَوَانِسُ أَمَّا مَنْ أَرَدَنْ عَنَاءَهُ
دَعَوْنَ الْهَوَى نُمَّ ارْتَمَيْنَ فُلُوبِنَا
عَجِبْتُ مِنَ الْغَيْرَانِ لَمَّا تَدَارَكْتَ
فُوَادُ إِذَا مَا تُذَكِّرِينَ خَفَ سَوْقُ
فَعَانٍ وَمَنْ أَطْلَقَنْ فَهَوَ طَلِيقُ
بِأَسْهُمِ أَعْدَاءٍ وَهَنَّ صَدِيقُ
جَالٌ يُخَالِجَنَّ الْبُرَيْقَ وَنَوْقُ^{٥١}

ويبدو لي أن ممارسة العطاء الشعري الواسع عند جرير، قد منح شعره بعامة سعة وقوة، في بروز الوعي الشعري ومنطق الشعر بما لم يصل إليه الشعراء.

فجميل بن معمر مثلاً نشأ بوادي القرى، وأحب بثينة، وقال فيها شعراً (قل أن تجود نفوس البشر بمثله رقة وعذوبة وصفاء وجمالاً).^{٥٢}

وقد تشكلت مدرسة شعرية في قرى بني عذره سموها المدرسة العذرية. من أبرز خصائصها (عفة اللسان، وصدق الصبابة، وغزلهم لا تغلب فيه النغمة المرححة... وإنما تغلب فيه نغمة حزينة).^{٥٣}

وقد ارتبطت أسماء الشعراء العذريين بأسماء عشيقاتهم. فقالوا: جميل بثينة، وكثير عزة، وقيس ولبنى، ومجنون ليلي، وعروة بن حزام، وعفراء العذرية.^{٥٤}

قال الأصمعي (سمعت الحي يتحدثون عن جرير أنه قال: لولا ما شغلني من هذه الكلاب لشببت تشبيهاً تحن معه العجوز إلى شبابها حنين الناقة إلى سقيها)^{٥٥}؛ لأنه شعر عاطفي.

وقد كان جرير أرق الشعراء نسبياً، وأخلص فيه طبعاً، وأقدر عليه وكانت (قوة العاطفة في شعر جرير بالقياس إلى شعر شعراء العراق سبباً في قربه إلى النفوس، وكانت أقوى ما تبدو في ذلك اللون الذي يتناول عاطفة عامة مشتركة بين الناس كالغزل)^{٥٦} وعاطفة جرير الشعرية تأتي انفعالية.

ويحتل الشعر الغزلي من ديوان جرير، الصدر الأكبر من شعره، ويتمثل مركز العفة الأخلاقية المعبر عن الروح العربية، في علاقة الرجل بالمرأة، في مدارات علاقات الحب المشروعة وغير المشروعة. فحرير في مطالع قصائده لا تكاد تخلو قصيدة من مطلع غزلي، فأتقل شعره بتلك الثقافة الغزلية، التي وصفها غير باحث بأنها من باب العفة الأخلاقية؛ لصدورها عن شاعر مسلم يمنعه إسلامه من رمي المحصنات بالفجور، والفحش خوفاً من إقامة الحدود الشرعية في ذلك. ولم يكن الموروث الغزلي العربي قبل جرير موروثاً منحللاً أخلاقياً، سوى ما نلحظه في أشعار بعض الجاهليين، وقليل من شعراء المسلمين، ممن تحرروا من سلطة الأخلاق النبيلة.

لقد كانت مطالع الشعر العربي منذ أوليته في العصر الجاهلي تحتضن كمّاً كبيراً من المؤثرات، والقضايا الغزلية، التي تنشط الذائقة الفنية لاستقبال النصوص الشعرية والتفاعل معها، وكانت تلك المقدمات تجعل الغزل بنية من بنيات المقدمات الطللية، وقل أن تجد قصيدة جاهلية خلّت مقدمتها من ذلك التقليد، فتجد بعد الوقوف على الديار الدائرة، ومعالمها الباقية تنثير في نفوس المخاطبين، وفي نفس الشاعر صوراً من الأسئلة والبكاء على الدائر فيها، فإذا ما كان قائل القصيدة الجاهلية صاحب مغامرات عشقية. عرض بعضاً من أوصاف الحبيبة حسيّاً، ومعنوياً.

وكشف بعض العلاقات بين العشيق وعشيقتة بذكر ذكريات الحب، ومعاناة الوصول إلى من يحب، وحالات النفس، وما يعترضه من العوائق إذا ما أراد الوصول إلى غايته، وهو في صور هذه المعاناة مهتم بالصور الحسيّة أكثر من اهتمامه بجوهر الروح الباحثة عن المعاني غير الصريحة.

ولقد بدأ تاريخ الشعر عند العرب، منذ أول وجود شعري، مروياً عن امرئ القيس الذي أصل من تقاليد الشعر، في قضايا وطريقته نظمته. فهو أول من وقف على الأطلال، وخاطب، وبكى، واستبكى فاتبعته الشعراء. في ذلك.^{٥٧}

فشاع في مقدمات القصائد منذ الجاهلية التأسيس للشعر، وخاصة شعر المدح، والهجاء بالوقوف على الأطلال، وذكر الغزل سواء كان ذلك نتيجة تجارب عاطفية، أو كان تقليداً استحسنته الذائقة العربية.

لكن اللافت للنظر أن صور الغزل في مقدمات القصائد، كانت حسيّة منذ تقاليد الشعر العربي الأولى عند امرئ القيس. مارس فيه هذا شيئاً من الفحش، والدبيب إلى الأعراس. فلازم ذلك التقليد بنية الشعر الجاهلي واستمر بعد ذلك عند بعض شعراء الإسلام كعمر بن أبي ربيعة، وغيره.^{٥٨}

فطغت صور الجسد الأنثوي في الشعر، على معنويات الروح الإنسانية، لأن الغزل بالمرأة يعد من باب مديح المرأة، التي لا ترضى بأقل الظهور المعنوي، والإنساني ذي القيم السلوكيّة المرغوب فيها، التي ظهرت في أشعار الغزلين الذين أطلقوا عليهم صفات من العفة، ومن سلك سبيلهم في الشعر من بني عذرة أو من غيرهم كالشعراء العذريين.

وكان الأثر الإسلامي من أقوى التشكيلات التكوينية عند شعراء الغزل، في الإسلام من حيث ترفيق الطبائع بما يراعي التصور الإسلامي.

ودخل في هذا كل شاعر غزل عفيف. ارتفع بغزله عن الفحش والتبدّل بالحسيات السلوكية.

وبدأت الذائقة العربية في عصور الإسلام تؤسس لذاتها أنماطاً من صور الغزل المعنوي البعيد عن مظاهر الحسيّة، ولعلّ مجلس سكنية بنت الحسين الذي كان يحضره بعض شعراء الغزل، أو بعض رواة أشعارهم، لعل مثل ذلك المجلس قد أرسى تقاليد جديدة لشعر الغزل في الإسلام. وقد سجّل تاريخ سيرورة شعر الغزل في بعض تقاليد الجديدة عند سكنية بنت الحسين، في مجلس من مجالسها الأدبية حاولت فيه تأصيل تقاليد جديدة في شعر الغزل، ربما أفاد منها جرير، وهو قريب عهد من ذلك المجلس في رقة حسّه، وقوة شفافيته الفنية، ومراعاة مكانته الاجتماعية.

وصاندة القلوب في بيت جرير الحبيبية، وليست الصاندة العارضة طلب المتعة قبل سابق معرفة مع الحبيب، وكان جرير قبل طروق المحبوبة وطلب الزيارة مهموماً، عبّر عن ذلك بأرق العواطف، وأصدق المعاناة. وقد اختزل مجلس سكنية المعاناة في الزيارة، وجفاء الرد عليها، بطلب إرجاعها بسلام. قال جرير في تلك القصيدة:

سَرَتِ الْهُمُومُ فَيَتَنَّ غَيْرَ نِيَامٍ وَأَخُو الْهُمُومِ بَرُومٌ كُلُّ مَرَامٍ
 دُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنَزَلَةِ اللَّيْلِ وَالْعَيْشَ بَعْدَ الْأَيْكَ الْأَقْوَامِ
 ضَرَبْتَ مَعَارِفَهَا الرُّوَامِسُ بَعْدَنَا وَسَجَالَ كُلُّ مُجَلِّلٍ سَجَامِ
 وَأَقْدَ أَرَاكَ وَأَنْتِ جَامِعَةُ الْهَوَى تُنِي بَعْدِكَ خَيْرَ دَارٍ مُقَامِ
 طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَالَيْسَ ذَا وَقَتَّ الزِّيَارَةَ فَارْجِعِي بِسَلَامِ
 تُجْرِي السِّوَاكَ عَلَى أَعْرَ كَأَنَّهُ بَرْدٌ تَحْدَرُ مِنْ مُتُونِ غَمَامِ^{٥٩}

وقد شكى في هذه القصيدة مراقبة العواذل، وأكاديبهم. وأخذت الرؤية الغزلية أكثر من نصف القصيدة. وجعل باقي القصيدة في هجاء ابن أكلة النخالة، وهو لقب أطلقه جرير على البعيث، وهو شاعر شاغل جريراً مع كوكبة الشعراء الهجائين.

فقد اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية كثير، وراوية نصيب، وراوية الأحوص. فأفتخر كل واحد منهم بصاحبه، وقال: صاحبي أشعر. فحكّموا سكينه بنت الحسين بن علي عليه السلام... فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول (طرقتك صائده القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجي بسلام) وأي ساعة أحلى للزيارة من الطروق، فتح الله صاحبك وفتح شعره؟ ألا قال: فادخلي بسلام. ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول:

يَقْرُ بَعِينِي مَا يَقْرُ بَعِينَهَا وَأَحْسَنُ شَيْءٍ مَا بِهِ الْعَيْنُ قَرَّتِ

فليس شيء أقر لعينها من النكاح، أفيحب صاحبك أن ينكح... ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذي يقول:

فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِي مَا طَلَبْتَهَا وَلَكِنْ طَلَبْتُهَا لَمَّا فَاتَ مِنْ عَقْلِي

فما أرى بصاحبك من هوى، إنما يطلب عقله،... ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أَهِيمُ بَدْعُ مَا حَبِيبٌ فَإِنْ أَمْتُ فَيَا حَزْناً مَنْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي
 فَمَا أَرَى لَهُ هِمَّةً إِلَّا مِنْ يَتَعَشَّقُهَا بَعْدَهُ: ... أَلَا قَالَ:
 أَهِيمُ بَدْعُ مَا حَبِيبٌ فَإِنْ أَمْتُ فَلَا صَلَحْتَ دَعْدُ لَذِي خُلَّةٍ بَعْدِي.

ثم قالت لراوية الأحوص ليس صاحبك الذي يقول:

مَنْ عَاشِقِينَ تَوَاعَدَا وَتَرَاسَلَا لَيْلًا إِذَا نَجْمُ الثَّرِيَا حَلَّقَا
 بَا بِأَنْعَمَ لِيَّةً وَالسَّدَّهَا حَتَّى إِذَا وَضَحَ الصَّبَاحُ تَفَرَّقَا

أَلَا قَالَ: تَعَانَقَا. ^{٦٠}

وكان راوية جرير ممن حضر ذلك المجلس، وتعرض بعض شعر جرير الغزلي للانتقاد، مما يدل على أن شعر جرير الغزلي يوافق مزاج شعر الغزل، لقد كان مزاج العصر الأموي، وحاسته الفنية، وذوقه الرقيق يتطلع إلى تأصيل مقاييس جديدة لشعر الغزل تناسب الأدواق الجديدة. وكانت سكينه بنت الحسين من النساء العفيفات في سيرتها، وسيرورتها الأدبية، فحاولت بما أبدته حول أشعار بعض الشعراء الغزليين أن توجه هذا الفن الشعري وجهة فنية، كان جرير أحد شعراء تلك المرحلة. لذلك سنرصد ما أختارناه من صور العفة في شعر جرير. بما

يكشف عن محدّدات مفهوم العفة شعراً عند جرير، دون الرّعم، أو الأدّعاء باستقصاء شعر العفة جميعه في ديوان جرير، فالجزء في ذلك قد يعبّر عن الكل. ومعالم الخطوط العريضة للصورة قد يسدّ مسد جزينات المعالم، وتشقيقاتها المعنوية عند أي شاعر من شعراء العربية، وليس عند جرير وحده. وسيقوم استنباط العفة، باستنطاق نصوصها الشعرية عند جرير ما أمكن، وسنشير إلى شيء من شعر المديح، وأضداده؛ لأن الأصل في شعر المديح الفضائل، وليس غيرها، والغزل يعد بؤرة البحث عن العفة فيه، وهو مركز الدراسة في هذا البحث نظراً لدقة العلاقة وشفافيتها بين الغزل والعفة، وأن ما بينهما يكاد يكون ملتبساً على كثير من الباحثين.

وقد قام اختيار الشعر العفيف على مجموعة من العناصر، التي تهم المختار للشعر، بعد أن يكون حدّد ذلك في تصوّراته الإجرائية، وشعر جرير المختار في هذه الدراسة، هو الشعر المعبّر عن قيم العفة. فيما تتطلبه العبادة، وتقربه العادة كالقناعة، والرضا بالحالة، وجلب المصلحة، ودفع المضار، والذود عن القيم والبحث عن مشتركات الفضيلة، فقد يكون الشعر كله يوجه المتلقي إلى تحقيق الفوائد، لكن البحث في هذا سيتجه إلى الفوائد في محدّدات العفة الخلقية المقومة للسلوك الأخلاقي النفعي المباشر، وغير المباشر. ولن نطرح المقياس العفيف ثم نتلمّس له الدليل والشاهد عليه، وإنما نستنبط مقياس العفة من الشعر بحيث يكون الشعر هو المعبّر عن روح العفة، والباث لأسرارها، وهذا يعود إلى استنطاق شعر العفة بما تحدّده خصائصه العفيفة، وسنبحث عن ذلك في شعر المديح، وأضداده، لأن شعر المديح يعد مجمع الفضائل، والعفة واحدة منها، والضد في المديح يظهر جماله الضد، ونستنبط العفة كذلك من شعر الغزل. الذي يعد هو الآخر مدحاً للمرأة، والعفة والفحش في ذكر النساء على طرفي نقيض من القبول، والرفض، وأنها في شعر الغزل من المسلّمات، والمؤاخذات في آن واحد، وهذا يحتاج إلى زيادة عناية يضع العفة في مكانها الصحيح من الممارسات الأخلاقية في الشعر، وفي غير الشعر، وسنضيف إلى هذه المادة الشعرية التي اخترناها دليلاً على العفة، ما وافق المادة الشعرية العفيفة المختارة، في قضايا الشعر مما يضيفي على البحث زيادة إضاءات ما أمكننا ذلك.

وليس هناك ما يمنع من اختيار شعر الغزل عند جرير، أو غير شعر الغزل، من اختياره مقياساً لمثيرات العفة.

ففي حديث ابن قتيبة عن مكان النسب من وحدة قصيدة المديح، أكد على دور ذلك في مطالع القصائد، وعلاقة الغزل بالمطالع؛ لأنه (قريب من النفوس، لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد، من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلّقاً فيه بسبب، وضارباً فيه بسهم، حلالاً أو حرام)^{٦١}.

فالحب غريزة من حيث العموم، والخصوص، يكون في الغزل، وفي غير الغزل، من الماديات والغزل، والنسب، والتشبيب وكل أمر يوثق العلاقة بين الرجل والمرأة لا تنكره النفوس السوية، وغير السوية. لكن جريانه في قنواته الصحيحة وفق ضوابط الأخلاق العامة، في صور العادة، والعبادة، يترقى بالنفس الإنسانية، إلى العلو من الحياة، ولا ينتزّل بها إلى مهاوي السقوط، والهلاك. لذلك كانت صور الفحش في إظهار العلاقات صوراً مستهجنة، ومبتذلة.

وربما تبادر إلى أذهان بعض من عرف شغف جرير بالنساء، وكثرة تغزله بهن، أنه زير نساء لا يهمنه من المرأة سوى فضاء الممتع، دون النظر إلى الجانب المهم في حياة المرأة، التي تعيش لتبني حبلاً، والذي يقرأ رثاء جرير في وزجه أم حزره في الرائية:

لولا الحياءُ لهاجني استعبار ولزرتُ قبرك والحبيب يزار

يرى في القصيدة صورة سيّدة ذات رؤية جديدة للحياة، وذات تطلّع للبناء. ويجد نفساً شعرياً أخلاقياً، بلغت فيه القصيدة، اثنين وثمانين بيتاً. من بحر الكامل: فالعلاقة بين جرير والمرأة في القصيدة لم تعد علاقات عشقيّة بحتة. إنها في المراثية علاقة عشقية وإنسانية، ومسؤولية. لقد كانت أم حزره في القصيدة امرأة عفيفة عفاً أخلاقياً، وكان جرير عفيفاً عند ما أخذ يرصد من صفات زوجه المفيد من الأخلاق، وليس الممتع من الحياة.

كان الرجاء والوفاء عاملين يبعثان على الشعر وتجويده وحسنه. والرجاء أن ينظر الشاعر إلى البواعث المحرّكة له لقول الشعر، وعلى مستوى قوتها، أو ضعفها يترقى الشعر إلى أقصى الغايات في صنعة الشعر، من جهة المعاني، واللغة ومن أسباب الرجاء (الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب)^{٦٢}.

وبعض هذه البواعث الشعرية تصلح لعواطف الوفاء، لكن من أبرز دوافع الوفاء أن الشاعر يقول، وكبده تحترق، على قريب، أو صديق، واستشعار قيمة الحياة، دون النظر إلى المردود المادي، في البحث عن المال، أو عن مكانة اجتماعية.

وقد قال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخُرَيْمي: (مدحك لمحمد بن منصور بن زياد يعني كاتب البرامكة أشعر من مراثيك فيه وأجود؟ فقال: كنا يومئذٍ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد)^{٦٣}.

أما بواعث جرير على رثاء وزجه. فهي وفاء الحب الخالص، والمودة، والرحمة والتعويض النفسي، لما أصابه من فقدها، وشرف العلاقة بينهما.

ومن صور الغزل العفيف، الذي كان جرير يسرّي به عن نفسه من مواجهات التحدي الهجائي مع صاحبيه الأخطل، والفرزدق، ما تراه في مطلع قصيدة هجائية نال فيها جرير من الأخطل وقومه. مقدماً لهجائه بمطلع من غزله العفيف، الذي ذكر فيه صواحيبه، فيما كان بينه وبينهنّ، ذاكرةً بعض الأيام الخوالي، وما كان فيها من عطفهنّ عليه ذلك العطف الذي بعث الحنين في نفسه إلى أيام الوصال:

وهرّك من بعد ائتلاف كلابها
بعيداً ولم يشحج لبيّن غرابها
مشارعٍ للظمان يجري حبابها
توجّس أو عيناً يخاف ارتقابها
لشمس تجلّى يوم دجن سحابها
يطير إليها واعتراه غذابها
إليها وإن صادت وقيل ثوابها

ألا حيّ ليلي إذ أجدّ اجتنابها
فليت ديار الحي لم يمس أهلها
أحلاً عن برد الشراب وقد نرى
ونخشي من الأعداء أذنأ سميعه
كأنّ عيون المجتلين تعرّضت
إذا دكرت للقلب كاذ لذكرها
فهل من شفيع أو رسول بحاجة

بَحْنَ الصَّبَا يَوْمًا بِمَنْعَجٍ لَمْ يَدَعِ
وَيَوْمًا بِسُلْمَانِينَ كِدْتُ مِنَ الْهَوَى
عَجِبْتُ لِمَحْزُونٍ تَكَلَّفَ حَاجَةً
حَمَى أَهْلَهَا مَا كَانَ مِنَّا فَأَصْبَحَتْ
عِزَّةً لِنَفْسٍ مَا يُدَاوِي مُصَابِيهَا
أُبُوحُ وَقَدْ زَمَّتُ لِيَبِينَ رِكَابِيهَا
إِلَيْهَا فَلَمْ يُرَدِّدْ بِشَيْءٍ جَوَابِيهَا
سَوَاءً عَلَيْنَا نَائِيهَا وَإِقْتِرَابِيهَا^{٦٤}

وقد اختزل حنينه إلى صوحيباته في (هند) التي أدار حولها أبياته التي ذكر فيها، النوى، وانقطاع الأسباب، وكيف كان يخشى من العذال استراق السمع، واختلاس الأنظار، باحثاً عن شفيح تشفع له عندهن، أو رسول يبلغ شيئاً من رسائله. وقد كاد أن ييوح بما كانت تكنه نفسه من الشوق.^{٦٥}

وقد تكرر ذكر صواحيبه في شعره دون التصريح بأسمائهن أحياناً. تجد ذلك في شكواه من مراقبة العذال له في عشقه. من مثل قوله:

أَقْلَّ اللُّومَ عَاذِلَ وَالْعَتَابَا
سَأَلْنَاهَا الشَّفَاءَ فَمَا شَفِينَا
وقولي إن أصبتُ فقد أصابا
ومننتنا المواعد والخلايا^{٦٦}

هذا من أعف الشعر، وأقصده، وأرق معانيه. ومن ذلك قوله:

ولقد نظرت وما تمتعُ نظرةً
فجزاك ربُّك في عشيرك نظرةً
ولَّهتِ قَلْبِي إذ عَلَتْنِي كِبْرَةٌ
عَمِرَتْ مَكْرَمَةَ الْمَسَاكِ وَفَارَقَتْ
ولقد أراك كسيت أجملَ منظرٍ
ومع الجمال سكينه ووقار^{٦٧}
في اللحد حيث تمكَّن المحفَّار
وسقى صدك مجلج مدرار
وذوو الأتمائم من بنيك صغار
ما مسَّها صلف ولا إقتار

وقد حشد في هذه المرتبة، ما عنَّ له من ذكريات الصفات النبيلة لأم حذرة لطيفة العشرة مع زوجها، ومع جاراتها، ريحها طيبة. والعرض لا دنس ولا خوار. ذات سيرة لطيفة، ووجه أنور.

تستحق الدعاء لها بأن تصلي عليها ملائكة السماء، والصالحون والأبرار:

كَانَتْ إِذَا هَجَرَ الْحَلِيلُ فَرَاشَهَا
خُزْنَ الْحَدِيثِ وَعَقَّتِ الْأَسْرَارَ

لقد كانت العفة مطلباً شعرياً، وأخلاقياً عند جرير، في شعره وفي سيرته خاصة، في شعر الغزل، وشعر الفضائل النفسية. وكان ذلك من الوضوح بمكان، في شعر الغزل وشعر المديح، وقضايا الشعر الأخرى، التي يناسبها الفضاء الشعري المناسب للفضائل. وقد وسَّعنا الحديث حول العفة في شعر الغزل عند جرير؛ لأنه الشعر الذي مدحه غير واحد، بأنه عفيف، فأردنا كشف مواطن العفة في الغزل، وفي بعض القضايا الأخرى من خلال النصوص التي ذكرناها، وفي شعر جرير من غير النصوص الشعرية حمولات عفيفة استقلت بها أبيات مفردة جاءت مبنوثة في شعر جرير بعامية. وقد اخترنا من الأبيات ذات الحمولات العفيفة الأبيات الآتية.

قال في ذكر الوفاء والكرم. وهما من معاني العفة، في مدح عمر بن عبد العزيز:

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عِنْدَ الْعَفْوِ عَاقِبَةً
عَبْدَ الْعَزِيزِ بَنِي مَجْدًا وَمَكْرَمَةً
وَأَرْهَبَ النَّاسِ صَوْلَاتِ إِذَا انْتَقَمُوا
إِنِ الْمَكَارِمَ مِنْ أَخْلَاقِكُمْ شَيْمٌ^{٦٨}

ومن عفاه الشعري قوله في هجاء تغلب، في تفریطهم في بعض اليقينيّات، وعدم التزامهم باليقين، حتى وصل بهم الحال إلى أنهم كانوا يتوسّدون الأحجار. ففعلوا الشرّ ضد الخير. ينام التعلبيّ وما يصليّ ويضحّي غير مرتفع الوساد^{٦٩}

ومن معاني القناعة العفيفة في أبيات ثلاثة قوله:

وَأَعْلَمُ أَنْ إِذْنَكُمْ نَجَاحٌ، وَأَنْيَ إِنْ بَلَّغْتُكُمْ سَعِيدٌ
وتبدأ منكم نعمّ علينا و إن عدنا فمنعكم معيدٌ
تزيدون الحياة إليّ حباً و ذكرٌ من حبانكم حميدٌ^{٧٠}
ومن العفة كذلك حماية المحارم التي تعدّ من مكارم الأخلاق:
رضينا أن سيبك ذو فضولٍ وأنك عن محارمنا تنزود
وأنكم حماة بكلّ ثغرٍ إذا ابتلت من العرق اللبود^{٧١}

وتجد الفخر بالمحامد بنية مدحية وهو مشترك أخلاقي بين مجموعة المثل الأخلاقية، والفخر ليس مقصوراً على نسب دون نسب ولا على فئة دون أخرى فهو إما أن يكون أصلاً وغريزة، أو يكون خلقاً مكتسباً، والوضاح مولى بني أمية من اصحاب العفاف المؤديّ إلى الفخر قال جرير:

لقد جاهد الوضاح بالحقّ معلماً فأورث مجداً باقياً أهل بربرا

وقد امتدّ الفخر بالانتماءات الفاضلة إلى أبناء إبراهيم عليه السلام. وسليمان، وموسى، وعيسى ويعقوب، وابنه، وسارة زوج الخليل عليهم السلام، والله ربنا سبحانه وتعالى
أبونا أبو إساق يجمع بيننا و منا سليمان النبيّ الذي دعا
وموسى وعيسى والذي حرّ ساجداً وموسى من زاده الله حكمةً
ويعقوب من زاده الله حكمةً فيجمعنا والغرّ أبناء سارة
أبونا خليل الله، والله ربّنا، و الله ربنا سبحانه وتعالى
أب كان مهدياً نبياً مطهراً فأعطى بنياناً، وملكاً مسخراً
فأنبت زرعاً دمع عينيه أخضراً و كان ابن يعقوب أميناً مصوراً
أب لا نبالي بعده من تعذرا رضينا بما أعطى الإله وقدر^{٧٢}

والمدح قيمة أخلاقية يحتاج إظهارها، إلى معرفة القيم الأخلاقية، في مشتقاتها، ومركباتها الكثيرة، حتى يصيب المادح مكامن المقاصد الشعرية. وقد تتقاطع مجموعة من القيم الأخلاقية في قصيدة المديح، فتجد المدح الخالص المادي والمعنوي. وتجد الفخر بالذات الممدوحة، والذات الشاعرة. وتجد صوراً من الفضائل الأخرى كشجاعة الفروسيّة، وشجاعة الرأي، والعدل، والفخر، والعتاب، وغير ذلك من قيم الشعر الفاضلة.

فمن ذلك التفاخر بقيمة العفة ذاتها، وبمكانها من شعر جرير والفخر قيمة من قيم المقاصد المدحية، ويأتي العتاب أحياناً واسطاً بين المدح، والجاه، ليخفف من شدة الهجاء النفسي.

العفة والعتاب:

العتاب وسيلة من وسائل، تقريب المقاصد بين المختلفين، وفيه بعض مقاربات العفة. إذا كان العتاب يهدف، إلى التسامح وتهيئة صور العفو، والخروج من المديح إلى العتاب تجده عند الشعراء المشهورين. أصحاب النزعات العفيفة. ومن ذلك مدح جرير الحجاج بن يوسف.^{٧٣}

سَمِئْتُ مِنَ الْمُوَاصِلَةِ الْعِتَابَا
 غَدْتُ هَوَجُ الرِّيحِ مِبْشِرَاتِ
 لَقَدْ أَقْرَرْتُ غَيْبَتَنَا لَوْاشِ
 أَنَاةٌ لَا النَّعُومُ لَهَا خَدِيدٌ
 تَطْيِيبُ الْأَرْضِ إِنْ نَزَلَتْ بِأَرْضِ
 كَأَنَّ الْمَسْكَ خَالِطَ طَعْمٍ فِيهَا
 أَلَا تَجْزِينَنِي، وَهُمُومٌ نَفْسِي
 سُوِّيتِ الْعَيْثُ حَيْثُ نَأَيْتِ عَنَّا
 أَهَذَا الْبُخْلُ زَادَكَ نَأْيَ دَارِ
 وَأَمَسَى الشَّيْبُ قَدْ وَرَثَ الشَّبَابَا
 إِلَى بَيْنِ نَزَلَتْ بِهِ السَّحَابَا
 وَكُنَّا لَا نَقْرُ لِكَ اغْتِيَابَا
 وَلَا تَهْدَى لِحَارَتِهَا السَّبَا
 وَتَسْقَى حِينَ تَنْزِلُهَا السَّرْبَا
 بِمَاءِ الْمُرْنِ يَطْرُدُ الْحَبَابَا
 بِذِكْرِكَ قَدْ أَطِيلُ لَهَا أَكْتِنَابَا
 فَمَا نَهَى لَغَيْرِكُمْ سَقَابَا
 فَلَيْتَ الْحَبُّ زَادَكُمْ اقْتِرَابَا

فالروح العفيفة تسري في الأبيات على نمط من المدح المشوب بالعتاب، وحركة الفعل في القصيدة حركة عفيفة. وكذلك اللسان في اختيار لغة المديح، وقد رجع الشاعر إلى نفسه يكشف معاناتها، وصبرها على الهجران، ولم يحسن الخروج إلى مدح الحجاج، إلا منذ البيت الرابع عشر، وقبل المديح كان يعالق في مقدمة القصيدة بين العتاب والتلطف في طلب الوصال، وطلب المدد، والعون العفيف لا يكون إلا من الذات الإلهية، في علاقة الحجاج بطلب الحاجات، مما ينعكس أثره على عفة الشاعر.

دَعَا الْحَجَّاجَ مِثْلَ دُعَاءِ نُوحِ
 صَبَرْتَ النَّفْسَ يَا ابْنَ أَبِي عَقِيلِ
 وَلَوْ لَمْ يَرْضَ رَبُّكَ لَمْ يُنَزَّلِ
 فَاسْمَعْ ذَا الْمَعَارِجِ فَايْتَجَابَا
 مُحَافِظَةً فَكَيْفَ تَرَى النَّوَابَا
 مَعَ النَّصْرِ الْمَلَائِكَةَ الْغَضَابَا^٧

ففي مدح جرير ليزيد بن عبد الملك، فضّل الله يزيداً بما قدّم من خير لملكه، في نشر العدل، والاستقرار بداية بيت:

لَمَّا بَلَغْتَ إِمَامَ الْعَدْلِ قَلْتُ لَهُمْ
 وَقَدْ كَفَأَهُ جَرِيرٌ بِفَضَائِلِ مَنْ صَنَعَ الشَّاعِرِ.
 غُرّاً سَوَابِقَ مَنْ نَسَجِي وَتَحْيِيرِي
 خَلِيفَةَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَكُمْ

فضلية يزيد عامة، وفضيلة جرير خاصة ليزيد، وحكمه، وقد فخر جرير بعبد الملك بن مروان. فخر عفة ووقار:

لَوْلَا الْخَلِيفَةُ وَالْقُرْآنُ يَفْرَعُهُ
 أَنْتَ الْأَمِينُ أَمِينُ اللَّهِ لَا سَرْفُ
 مَا قَامَ لِلنَّاسِ أَحْكَامٌ وَلَا جُمْعُ
 فِيمَا وَلِيَتْ وَلَا هَيَابَةٌ وَرَعُ

والثبات على الحق عفاف لا بعده عفاف.

يَا آلَ مَرْوَانَ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَكُمْ
 فَضْلاً عَظِيماً عَلَى مَنْ دَيْنُهُ الْبِدْعُ^٧

وتظهر العفة في شعر المديح في حوار جرير مع المحبوبة بلا خداع، وإغواء بدون مبرّر لمخالفة الحال. والتعبير عن صدق الحالة التي كان عليها جرير إبان مدحه لعبد الملك بن مروان. وقد بلغ الشاعر من الكبر ما يكفي لانصراف المحبوبة عنه. وقد ذكر صورة تلك الحالة

في مطلع قصيدته التي مدح بها عبد الملك بن مروان في سبعة أبيات بعيداً عن التهاك في طلب اللذة الموقوتة. ومطلع القصيدة

حيوا أمانة واذكروا عهداً مضى قبل التصدُّع من شمالييل النوي^{٧٦}

وقد غيرته حاجات الحياة وهمومها. فلا صباية بعد ذهاب الصبا، وهشاشة العظام، وتقوسها، بعد استقامتها، وقصر الخطى، وخضب اللحية، وذلك منظر يروع الفتیان.

والمدح لا يكون إلا بالمعنويات الفضائلية. وكذلك مدح النساء والتغزل بهنّ، غير أن باب التغزل بالمرأة قد يميل إلى ذكر بعض الصفات الحسيّة الجسديّة. كبروز الأرداف، وبياض الوجه، ونصاعة الأسنان، والطول غير الممل، وليونة التثني، وكل ماله علاقة بصفات الجسد الخارجية، وقد يكون اهتمام بعض الشعراء بخارج الجسد في المدح كذلك. وهذا وغيره في شعر الغزل، والمدح والفخر، وغير ذلك مما يؤثر على قيم الشعر المعنوية النفسية، والروح الإنسانية، التي تحرك المعاني وعلى هذا الأساس تعد العفة قيمة معنوية روحية، ترتفع بالحساسية الشعرية، إلى أن تكون معبرة عن الروح لا عن الجسد.

وقد ذهب الأمدي إلى أن المدح بالمحسوسات في أغراض الشعر جميعها، أمر من طبيعة النفس الإنسانية، التي تؤثر فيها بعض المحسوسات (لأن الوجه الجميل يزيد في الهيبة)^{٧٧}.

وهذا على عكس ما كان أنكره عبد الملك بن مروان على عبيد الله بن قيس الرقيّات في مدحه لعبد الملك بزينة التاج:

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب^{٧٨}

ومن العفة مما له علاقة بالفضائل المدحيّة تعالق العدل، والشجاعة، وحفظ الحقوق الموروثة، والمستحدثة الدينية، والدينيوية، ولا يكون ذلك إلا بامتلاك القوة، وإظهار مواقف الشجاعة:

ألا رب سامي الطرف من آل مازن	إذا شمرت عن ساقها الحربُ شمرا
أنتسوّن شدات ابن أحوز؟ إنّهَا	جَلتْ كلّ وجهٍ من مصدّ فأسفرا
وأدرّك ثأر المسّمعين بسّيفه	وأغضب في شأن الخيار فنكّرا
وأطفأت نيران النفاق وأهله	وقد حاولوا في فتنة أن تُسعرا
فلم تبق منهم راية يرفعونها	ولم تبق من آل المهلب عسكرا
فأنّ لأنصار الخليفة ناصراً	عزيزاً إذا طاغ طغي وتجبّرا
فدو العرش أعطانا على الكره والرضا	إمام الهدى ذا الحكمة المتخيراً
فأضحّت رواسي الملك في مستقرها	بمنجب من آل مروان أزهر ^{٧٩}

وهذه الأبيات من قصيدة مدح بها جرير هلال بن أحوز المازني وافتخر فيها جرير بنسبه، ومكانته الاجتماعية، وأرومته العربية. وذكر انتماءه إلى أنبياء الملة الحنيفية من لدن إبراهيم حتى موسى. ويوسف عليهما السلام.

تقاطع العدل والعفة:

من مدح جرير المهاجر الكلابي بالعدل الذي ينبغي أن يعم على كل أحد، وذلك في قوله:

أكلُ الدهر يؤنس من رجاكم
وكيف ولا عداتك ناجزات
لقد بعث المهاجر أهل عدلٍ
فحكمتك يا مهاجر حكم عدلٍ
عدو عند بابك أو رقيب
ولا مر جؤ نأيكم قريب
بعهد تطمئن به القلوب
ولو كره المنافق والمريب^{٨١}

ومن ذلك حفظ الهوية الشرعية، والاجتماعية في أي غرض من أغراض الشعر. الغزلية، والمدحية، وذات القضايا الأخرى، وذلك من خلال مركبات الفضائل، في تداخل وظائفها. كقول جرير في عبد الملك بن مروان:

واري الزناد من الأعياص في مهلٍ
ما عد قوم بإحسان صنيعهم
أنت المبارك يهدي الله شيعته
فكل أمر على يمين أمرت به
فالعالمون لما يقضي به تبع
إلا صنيعكم فوق الذي صنعوا
إذا تفرقت الأهواء والشيع
فينا مطاع ومهما قلت مستمع^{٨١}

والتقني بالحكم العدل العفيف من قضايا شعر جرير المعنوية والعفو بعد الجهل من ذلك ما قاله في مدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك:

إن الإمام الذي ترحى نوافله
مستقبل الخير لا كاب ولا جد
الله أعطاكم من علمه بكم
أنت الخليفة للرحمن يعرفه
كؤنوا كيوسف لما جاء إخوته
الله فضله والله وفقه
بعد الإمام، ولي العهد أيوب
بدر يغم نجوم الليل مشبوب
حكماً وما بعد حكم الله تعقيب
أهل الزبور وفي التوراة مكتوب
واستعرفوا قال: ما في اليوم ثريب
توفيق يوسف إذ وصاه يعقوب^{٨٢}

والشجاعة وهي من أصول الفضائل الإنسانية، لم تعد محصورة في أسباب الفروسية المادية من إقدام، وكر وفر، ونصر وهزيمة. لقد أضحت في رؤية جرير الشعرية تعني الرأي السديد، والعدل والخير، وحفظ قيم الحياة والدفاع عنها وهذا ما وصف به جرير عبد الملك بن مروان في قصيدة ميمية مطلعها:

حي الديار بمعاقل فالأنعم كالوحي في رق الكتاب المعجم^{٨٣}

ومع تطوّر الذائقة العربية، واتساع شؤون الدولة الأموية، أصبح الشعر في أي موضوع من موضوعاته يحمل قضايا المجتمع العربي، وأصبحت مشتركات العفة، ومركباتها المعنوية، تنطلق مما كان يشغل أذهان الناس، في ذلك العصر: وبقيت تقاليد أغراض الشعر العربي، من مدح وهجاء، وفخر، ورتاء، وغزل، تجري على سنن العرب الشعري، وفق حمولات معرفية جديدة، تبحث لها عن أمكنة شعرية جديدة تعبر عن روح العصر، وما تريده التطورات المرحلية للحياة.

القناعة:

ولم يكن لجرير من حيث كثرة تردده على مجالس الخلفاء، وأعيان المجتمع شره، ينزل بذاته الشعرية إلى التكتسب بشعره، لما في أيدي الناس، إذ لم يكن كثير الطمع، بل كان قانعاً بنصيبه مما أفاء الله عليه، دون الحاح كما هي عادة بعض الشعراء المادحين:

لَقَدْ مَدَّنِي عَمْرٌ وَزَيْدٌ مِنَ الثَّرَى
بِأَكْثَرِ مِمَّا عِنْدَ تَيْمٍ وَأَطْيَبَا
إِذَا عَثَرَكَ الْأَوْرَادُ يَا تَيْمٌ لَمْ تَجِدْ
عِنَاجاً وَلَا حَبَالاً بِدَلُوكِ مُكْرَبَا^{٨٤}

ولم يكن جرير عفيفاً في غزله دون بقیة شعره إذ كان كثيراً في هجائه ما يهجو الفرزدق، والأخطل النصراني بدينه برقة الدين والخروج على القيم الأخلاقية. في هجاء الفرزدق. وكان (أجمل غزله، وأرقه عاطفة، وأصدقه شعوراً، ما قاله في زوجه خالدة أم حذرة).^{٨٥} فهل كان يخاطب في نصه الآتي زوجه خالدة في بعض عتابه لها، أو كانت خالدة في الأبيات الآتية إحدى صاحباته:

أَخَالِدُ عَادَ وَعَدُكُمُ خِلَابَا
وَمَتَّيْتُ الْمَوَاعِدَ وَالْكَذَابَا
أَلَمْ تَنْبَيَّنِي كُلِّي وَوَجِدِي
غَدَاةٌ يُرَدُّ أَهْلُهُمُ الرِّكَابَا
أَهَذَا الْوُدُّ زَانِكٌ كُلَّ يَوْمٍ
مُبَاعَدَةٌ لِإِلْفِكَ وَاجْتِنَابَا
لَقَدْ طَرَبَ الْحَمَامُ فَهَاجَ شَوْقاً
لِقَلْبِ مَا يَزَالُ بِكُمْ مُصَابَا
أَلَا يَا قَلْبَ مَا لَكَ إِذْ تَصَابِي
وَهَذَا الشَّيْبُ قَدْ غَلَبَ الشَّبَابَا
سَأَحْفَظُ مَا زَعَمْتَ لَنَا وَأَرعى
إِيَابَ الْوُدِّ إِنَّ لَهُ إِيَابَا
وَأَيْلٍ قَدْ أَيْبَتْ بِهِ طَوِيلٌ
لِحُبِّكَ مَا جَزَيْتَ بِهِ ثَوَابَا
أَخَالِدُ كَانَ أَهْلُكَ لِي صَدِيقاً
فَقَدْ أَمَسُوا لِحُبِّكُمْ جِرَابَا^{٨٦}

وقال في حب هند:

أَلَا حَيَّ رَبِعاً بِاللَّوَى ذَكَرَ الْعَهْدِ
لِهُنْدٍ وَلَوْ أَنَّ الْمُقِيمِينَ بَعْدَهَا
فَيَا أَيُّهَا الْعُدَالُ إِنَّ مَمْلَأْتِي
تَزِيدُ إِذَا مَا لُمْتُمُونِي بِهَا وَجَدَا
يَعِيبُ الْعَوَانِي شَيْبَ رَأْسِي بَعْدَمَا
يُفَرِّقَنَّ بِالْمِدْرَةِ دَاجِيَةً جَعَدَا

إلى قوله:

إِذَا ذَكَرْتَ نَفْسِي تَمِيماً تَذَكَّرْتَ
أُموراً تُنْسِينِي الضَّغَائِنَ وَالْحِقْدَا
شَكُونَا إِلَى سَعْدَى جَوَى وَصَبَابَةً
وَمَا كُلُّ مَا فِي النَّفْسِ تُخْبِرُهُ سَعْدَى^{٨٧}

فالعفة في القول يداري بنفسه كتمان حاجاته، ونسيان ما يعترى النفوس من أدواء الضغائن، والحدق.

وفي ذكر الفراق، والبعد، وفعل الصبابة، وشيء من الأخلاق النسائية، قال جرير:

لَعَلَّ فِرَاقَ الْحَيِّ لِلْبَيْنِ عَامِدِي
عَشِيَّةً قَارَاتِ الرُّحَيْلِ الْفَوَارِدِ
لَعَمْرُ الْعَوَانِي مَا جَزَيْتَ صِدَابَتِي
بِهِنَّ وَلَا تَحْبِيرَ نَسِجِ الْقَصَائِدِ
وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ وَاصِلٍ قَدْ قَطَعْنَهُ
وَقَتْنَ مِنْ مُسْتَحْكِمِ الدِّينِ عَابِدِ
فَإِنَّ أَلْتِي يَوْمَ الْحَمَامَةِ قَدْ صَبَا
لَهَا قَلْبٌ تَوَابٍ إِلَى اللَّهِ سَاجِدِ
رَأَيْتُ الْعَوَانِي مَوْلَعَاتٍ لِذِي الْهَوَى
بِحُسْنِ الْمُنَى وَالْبُخْلِ عِنْدَ الْمَوَاعِدِ
لَقَدْ طَالَ مَا صَدِنَ الْقُلُوبَ بِأَعْيُنِ
إِلَى قَصَبِ زَيْنِ الْبُرَى وَالْمَعَاوِدِ^{٨٨}

لقد ظهر الألم العشقي على نفس الشاعر، التي لم تجد عند صواحيبه ما يستحق من إطفاء نار البين، وقد كشف رحيلهنّ بعض خلائق النسيان، والجحود. وهذا في نظر الشاعر من خلائق الغواني، اللواتي يقطعن حبال التواصل، ويثرنّ الفتنة. ومهما بلغ بهنّ الدلع لذي الهوى، فإنهنّ أنجل ما لکنّ عند الوفاء بالمواعد.

ومن صور الفراق قوله:

يا أختَ ناجيةَ السلامِ عَلَيْكُمْ
لو كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ
قَبْلَ الرّحيلِ وَقَبْلَ لُومِ اللّومِ
يَوْمُ الرّحيلِ فَعَلْتُ ما لَمْ أَفْعَلِ

هذا من الشعر الذي عبّر عن مراد الشاعر، تعبيراً واضحاً، ومن الشعر الذي قال عنه ابن قتيبة إنه (أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع) ^{٩٩} في تناسب المعاني، والألفاظ وفي علاقة المطالع، بالمقاطع. ^{٩٠}

ومثل ذلك من شعر الفراق:

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادِرُوا
غَيِّضَ مِنْ عِبْرَاتِهِمْ وَقُلْنَ لِي
وَسَلًّا بَعَيْنِكَ ما يَزَالُ مَعِينَا
ماذا لَقِيتَ مِنَ الهوى وَلَقِينَا ^{٩١}

وقوله في الفراق كذلك:

إِنَّ الْخَلِيطَ وَلَوْ طَوَّعَتْ ما بَانَا
إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرْضَانُ
وَقَطَّعُوا مِنْ جِبَالِ الوَصْلِ أَقْرَانَا
فَقَتَلْنَا نَمَّ لَمْ يُحْيِينِ قَتَلْنَا
وَهُنَّ أضعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أركاننا ^{٩٢}

وهذا الشعر عند ابن قتيبة مما حسن لفظه وحلا، وتأخرت معانيه. ^{٩٣}

الخاتمة

عبّر الشعر العربي في حركته التاريخية، والفنية عن حاجات النفس العربية، وقضايا الحياة، ومشكلاتها الموضوعية، والأدبية. فتعددت قضايا الشعر العربي، وتلونت بهوم الإنسان. ومن ذلك المشترك الشعري حول الموضوع الشعري الواحد، أو القضية الإبداعية الواحدة فتجد مجموعة شعراء المديح، وشعراء الهجاء، وشعراء الغزل مما دفعنا إلى اختيار قضية من قضايا الشعر العربي التراثي وهي قضية "العفة في شعر الخطفي" الشاعر الأموي (جرير بن عطية)؛ نظراً لاهتمام ذلك الشاعر بعفة اللسان في غزله، وبعفة السلوك في حياته فاجتمع له في شعره من خصائص الغزل العفيف ما استحق البحث لكشف أصوله، ومنطلقاته، ومشاركات غير شاعر عربي فيما أنتجه جرير. إذ كشفت الدراسة:

- أن العفة في القول والفعل مشترك إنساني لا يقف عند جنس بشري دون غيره.
- أن العفة مطلب تصوّري من مطالب الأخلاق الدينية، والعرفية.
- أن هناك تعالفاً بين الإبداع، والأخلاق.
- أن قيمة الفن لا تضعف أو تتأخر في شعر الأخلاق عن غيره من الشعر.
- أن جريراً كان من فحول الإسلاميين.
- لم يعد شعر الغزل يحتل مقدمات القصائد، وإنما أصبح بنية من نسيج القصيدة لتحقيق الوحدة الموضوعية للنص.
- تأصلت تقاليد شعر الغزل عند جرير على عادة شعراء العربية في تمتع المعشوقة، وصعوبة القرب من شخصيتها.
- ارتفع شعر جرير الغزلي عن التبذل والتهالك في الحب.
- كشف غزل جرير عن روح عربية غزلية جديدة، أملت لها طبيعة الحياة في العصر الأموي، وحدائث الدين، وتقاليد شعر الغزل الموروثة.
- حقق شعر العفة بعامة حضوراً فنياً، ومعرفياً على مستوى الشعر العربي، وأرسى تقاليداً جديدة في علاقة العاشق، والمعشوق.

الإحالات

١. سورة القلم آية ٤.
٢. ترجمة أحمد لطفي السيد (مصر ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م).
٣. الآيات ٢٢٤- ٢٢٧.
٤. انظر الاتجاه الأخلاقي في نقد الأدب حتى نهاية القرن السابع الهجري. أ.د. محمد بن مريسي الحارثي السعودية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م. ص ٧٩.
- ٥- انظر الشعر والشعراء تحقيق: أحمد شاكر. ج ١/ص ٦٤، ٣٠٥ وانظر عيار الشعر. ابن طباطبا العلوي. تحقيق عباس عبد الساتر. (بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ١٨- ١٩
- ٦- نقد الشعر. تحقيق كمال مصطفى. (القاهرة ١٩٧٨م). ص ٩٦
- ٧- انظر عيار الشعر. ابن طباطبا. ص ٢٠.
- ٨- انظر ابن منظور لسان العرب. مادة (عدل).
- ٩- انظر السابق مادة (عفف) ومن مشتقات العفة.
- ١٠- الحيوان. الجاحظ. تحقيق محمد عبد السلام هارون. (مصر ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م) ج ٣/ ١٣١ - ١٣٢.
- ١١- انظر شرح ديوان جرير. مجيد طراد. (بيروت- ٢٠٠٣م). ص ٥.
- ١٢- انظر تحقيق محمود شاكر. (مصر ١٩٧٤). ج ٢/ ٣٧٤-٤٠٠.
- ١٣- انظر السابق ٣٧٤/٢.
- ١٤- السابق ٣٧٥/٢.
- ١٥- طبقات فحول الشعراء. ابن سلام الجمحي. تحقيق: محمود شاكر. (مصر ١٩٧٤م). ٣٧٥/٢.
- ١٦- انظر تحقيق محمد نعمان طه تحقيق ديوان جرير. مصر ١٩٨٦م ص ٥-١٩.
- ١٧- انظر السابق ص ٣٩. وانظر نقائض جرير والأخطل. أبو تمام. تحقيق: أنطون اليسوعي (بيروت ١٩٢٢م).
- ١٨- انظر بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ١٩- من ذلك: كتاب الأغاني. الأصفهاني. تحقيق مصطفى السقا (مصر ١٣٨١هـ - ١٩٦١م) ج ٣/٨-١٩، تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان (مصر ١٩٧٧م)، والشعر والشعراء. ابن قتيبة، والأدب العربي الإسلامي. شوقي ضيف (مصر ١٩٦٣م).
- ٢٠- شرح ديوان جرير. مجيد طراد. (بيروت ٢٠٠٣م). ص ٩.
- ٢١- انظر الشعر والشعراء. ٤٦٤/١ - ٤٧٠
- ٢٢- السابق ٤٦٥/١
- ٢٣- السابق ٤٦٦/١
- ٢٤- السابق ٤٦٦/١
- ٢٥- سورة البقرة. آية ١٩٤.
- ٢٦- نجيب محمد البهيتي تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري. بيروت ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م. ص ٢٨٧
- ٢٧- السابق. ص ٢٨٧.
- ٢٨- السابق. ص ٢٨٨.
- ٢٩- الديوان. ٤٧/١.
- ٣٠- السابق. ٥١٥/٢.
- ٣١- انظر بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ٣٢- انظر الديوان ٥٦-٥٣/١.
- ٣٣- (بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م). انظر ص ٥.
- ٣٤- السابق ص ٦.
- ٣٥- السابق ص ٦.
- ٣٦- انظر السابق ٣٦٦
- ٣٧- انظر السابق ٣٣٨-٢٢٦
- ٣٨- انظر السابق ٣٣٩
- ٣٩- انظر السابق ص ٣٣٩
- ٤٠- انظر السابق ٣٤٠
- ٤١- انظر الموشح. المرزباني. تحقيق: علي محمد البجاوي. (مصر ١٩٦٥م) ص ٨٥.
- ٤٢- انظر الوساطة. القاضي الجرجاني. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي (مصر ١٣٨٦هـ - ١٩٦٢م).

- ٤٣- شرح ديوان جرير ١٨ .
 ٤٤- وغزله كغزل جميل بثينه ومجنون ليلى من حيث المعاني ص١٨ .
 ٤٥- قد يتفوق شعره على شعر العذريين في العفة ص١٩ .
 ٤٦- شرح ديوانه ٣١٧
 ٤٧- الديوان ٢٥٦/٢
 ٤٨- ديوانه. شرح: البرقوقي. (مصر ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م). ص١٢٥٤ .
 ٤٩- انظر ديوانه ص٤٥٢-٤٦٤
 ٥٠- الديوان ٢٤٦/١
 ٥١- الديوان. ٢٧٢/٢-٢٧٣ .
 ٥٢- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري. ص١٦٥ .
 ٥٣- السابق ص١٦٦
 ٥٤- انظر السابق ص١٦٦
 ٥٥- السابق. ص٢٨٧ .
 ٥٦- السابق ٢٨٨ .
 ٥٧- انظر طبقات فحول الشعراء. ابن سلام الجمحي. ج١ ص٥٥ .
 ٥٨- انظر ديوان امرئ القيس. (مصر ١٩٥٨م)، وانظر ديوان عمر بن أبي ربيعة. (بيروت- بدون تاريخ).
 ٥٩- شرح ديوان جرير. ص٣٧٥
 ٦٠- الأغاني. الأصفهاني. ج١٦/١٦٣-١٦٤ .
 ٦١- الشعر والشعراء ٧٥/١ .
 ٦٢- السابق ٧٨/١ .
 ٦٣- ابن قتيبة. الشعر والشعراء ٧٩/١ .
 ٦٤- انظر شرح ديوانه. ص٥١ .
 ٦٥- انظر السابق ص٧٤
 ٦٦- السابق ص٥٨
 ٦٧- السابق ص١٣٢
 ٦٨- الديوان ٢٧٦/٢-٢٧٧
 ٦٩- السابق ٢٨٦/٢
 ٧٠- السابق ٢٨٩/٢-٢٩٠
 ٧١- السابق ٢٩٢/٢
 ٧٢- ديوانه ص١٨٧. وشرح ديوانه ١٦٠
 ٧٣- ومن ذلك مدح جرير الحجاج بن يوسف. الديوان ٢٤٣/١
 ٧٤- ديوانه ٢٤٤/١
 ٧٥- السابق ٢٧٨ /١
 ٧٦- شرح ديوانه ص٢٣
 ٧٧- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري. ت: أحمد السيد صقر. (مصر ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م) ٣٦٨/٢ .
 ٧٨- ديوانه تحقيق: محمد يوسف نجم. (بيروت) ص٥ .
 ٧٩- ديوانه ٢/٤٧٠-٤٧١
 ٨٠- السابق ٢/٤١٠
 ٨١- السابق. ٢/٢٢٥
 ٨٢- السابق ٢/٢٤٨-٢٤٩ .
 ٨٣- السابق ٢/٢٩٥ .
 ٨٤- شرح الديوان/ص٣٠
 ٨٥- ديوانه ص٦
 ٨٦- شرح الديوان ٥٦-٥٧
 ٨٧- الديوان ١/٢٤١-٢٤٢
 ٨٨- شرح الديوان ١١٦-١١٧
 ٨٩- الشعر والشعراء ١/٦٦
 ٩٠- انظر السابق ١/٩٧
 ٩١- السابق ١/٦٧

المصادر والمراجع:

- ١- الأمدي. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري. تحقيق: أحمد السيد صقر. (مصر ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م).
- ٢- الأصفهاني. كتاب الأغاني. تحقيق: مصطفى السقا. (مصر ١٣٨١هـ-١٩٦١م).
- ٣- أرسطو طاليس. علم الأخلاق. ترجمة: أحمد لطفي السيد. (مصر ١٣٤٣هـ-١٩٢٤م).
- ٤- أبو تمام. نقائض جرير والأخطل. تحقيق: أنطون اليسوعي (بيروت ١٩٢٢م).
- ٥- الجاحظ. الحيوان. تحقيق: محمد عبد السلام هارون. (مصر ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م).
- ٦- جرير: ديوانه. تحقيق: نعمان طه. (مصر ١٩٨٦م).
- ديوانه. نشر: كرم البستاني. (بيروت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).
- ٧- حبيب بن أوس. نقائض جرير، والأخطل. تحقيق: أنطون اليسوعي. (بيروت ١٩٢٣م).
- ٨- ابن سلام الجمحي. طبقات فحول الشعراء. تحقيق: محمود شاكر. (مصر ١٩٧٤م).
- ٩- شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي. العصر الإسلامي. (مصر ١٩٦٣م).
- ١٠- ابن طباطبا. عيار الشعر. تحقيق: عباس عبد الستار. (بيروت ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).
- ١١- عبيد الله بن قيس الرقيات. ديوانه. تحقيق: محمد يوسف نجم. (بيروت).
- ١٢- القاضي الجرجاني. الوساطة. تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ومحمد البجاوي. (١٣٨٦هـ-١٩٦٢م).
- ١٣- ابن قتيبة. الشعر والشعراء. تحقيق: أحمد محمد شاكر. (مصر ١٩٦٦م).
- ١٤- قدامة بن جعفر. نقد الشعر. تحقيق: مصطفى كمال. (مصر ١٩٧٨م).
- ١٥- كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. (مصر ١٩٧٧م).
- ١٦- مجيد طراد. شرح ديوان جرير. (بيروت ٢٠٠٣م).
- ١٧- محمد بن مريسي الحارثي. الاتجاه الأخلاقي في النقد الأدبي حتى نهاية القرن السابع الميلادي. (السعودية ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م).
- ١٨- المرزباني. الموشح. تحقيق: علي محمد البجاوي. (مصر ١٩٦٥م).
- ١٩- ابن منظور. لسان العرب
- ٢٠- نجيب محمد البهيتي. تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري. (بيروت ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م).